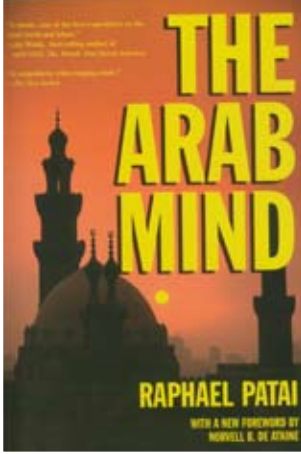


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل الخامس

المكون البدوي في الشخصية العربية

1. القيم البدوية

على الرغم من أنه في يومنا هذا لا يشكل البدو أكثر من حوالي 10% من سكان العالم العربي، فإن سكان المدن والقرى في العالم العربي يدعون انحدرهم من أصول بدوية. وما هو أهم من الأرقام أن قسما كبيرا من السكان المتحضرين لا يزالون يعتبرون القيم البدوية مثلا أعلى ينبغي اللحاق به -على المستوى النظري على الأقل. وكما قال جاك بيرك (Jacques Berque)، أحد المستشرقين القلائل الذين كتبوا عن العالم العربي بحس مرهف وتفهم: «فرضت حدة العاطفة لدى سكان الصحراء قيمها على مترفي المدن»¹ إن الحقيقة تتمثل في أن كل العرب، وليس سكان المدن فحسب، مع استثناء الذين تأثروا بالغرب، ينظرون إلى البدو على أنهم صور وأشكال قادمة من الماضي، وأنهم الأسلاف الأحياء، والورثة والشهود على المجد الغابر لعصر البطولات، ومن هنا تأتي أهمية القيم البدوية والنظام الأخلاقي الارستقراطي فيها عند العالم العربي ككل.

يترك عصر البطولات، حيث قام الأسلاف بأعمال عظيمة ذات تأثير مستديم، أثرا لا يمحو على إدراك الناس جميعهم. وعندما تنظر الذرية إلى أسلافها الأبطال فإنها تمنح نفسها الصفات التي تحظى بأعلى تقدير في ثقافة الخلف: كالقوة الخارقة التي تحولهم إلى عمالقة حقيقيين مليئين بالشجاعة، والقدرة على القيادة، والثقافة. ومن خلال التمسك بأولئك الأسلاف باعتبارهم صورا مثالية، يخلق الخلف لنفسه نماذج ذات أقوال وأفعال

1) يرى المؤرخ الألماني ماكس ويبر (Max Weber) أن الخصائص القومية ترجع إلى نمط اجتماعي ناتج عن طبقة اجتماعية ذات أهمية استراتيجية. ومن هنا انطلق للافتراض بأن طبقة اليونكر (Junker)، وهي طبقة اجتماعية كان لها أهمية ونفوذ في المجتمع الألماني، أثرت تأثيرا كبيرا على الشخصية القومية الألمانية ككل. وبهذه الطريقة استطاع البدو أن يطبعوا المجتمع العربي بطابعهم الخاص.

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

يجب أن تحتذى. وهي تحتذى بالفعل. وذلك بالطريقة نفسها التي تفعل فيها المؤثرات القوية فعلها في نظام القيم وأنماط السلوك.

ليس عصر البطولات عند العرب مقيدا بعصر معين. وليس ذلك غريبا لما يتصفون به من مجافاة للتاريخ. صحيح أن هذا العصر يقع في الماضي، لكنه ما زال مستمرا في الحاضر لأن مسرح الأحداث الذي عاصره ما زال موجودا دون تغير. وبعبارة أخرى يمكن القول أنه في العقل العربي يتساوى عصر البطولات الذي طبع بطابعه الخاص كافة الأجيال اللاحقة، مع بيئة بطولية وبنية اجتماعية خاصة نشأ استجابة لتحديات ذلك العصر. تلك البيئة هي الصحراء العربية. وتلك البنية الاجتماعية هي سكانها من البدو الرحّل. تدعى الصحراء في اللغة العربية بالبدو أو البادية، والنسبة إليها بَدَوِي أو بَدَوِي. وبالمناسبة ثمة معنى آخر لكلمة «البدو» وهو (البداية) مما يسمح بالاستدلال على أن الصحراء كانت بداية العالم بالنسبة للعرب القدماء، كما هو حال الماء بالنسبة لليهود والفيلسوف الأغرقي طاليس. وعلى الرغم من أن الصحراء وسكانها من البدو يختلفون كليا عن أغلبية العرب التي تسكن المدن والقرى منذ أجيال عديدة، فإنهم يحتلون المكانة الأولى في الأفكار والمعتقدات وسلم القيم دون منازع.

من الأمور الكثيرة التي تشير إلى تفوق الصحراء وقيم وتقاليدها سكانها. عادة قديمة كانت تقوم بها الأسر المرموقة في دمشق (وفي مدن عربية أخرى) حتى وقت قريب، وتقضي هذه العادة بإرسال أبناء هذه العوائل، والتي تسكن المدن منذ أجيال بعيدة، إلى القبائل «الأصيلة» التي ترعى الجمال في الصحراء السورية لمدة تصل إلى عام أو اثنين، يتعرف الأبناء خلالها على التجارب والمدارك والعادات والقيم البدوية، بشكل مشابه لما كان يفعله الانكليز بإرسال أبنائهم ليتعلموا في جامعتي آيتون واوكسفورد، أو ما كان يفعله اليابانيون بإرسال أبنائهم إلى إحدى أديرة الزن لعدة أسابيع كل عام. وفي كل حالة من هذه الحالات كان الهدف واحدا: تمكين الشباب من اكتساب أكثر ما يمكن مما يعتبر

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

أفضل وأنبئ التقاليد القومية. وكان على ابن المدينة العربي أن يتعلم من مضيفه البدوي -بالأخص- اللغة «الصافية» وعاداته وتقاليده ذات التقدير العالي (أي «الأدب» و«العادات»).

إن هذا الميل للنظر إلى البدو باعتبارهم العرب «المثاليين» تعزز من خلال ما مارسه أجيال عديدة من قضاة المسلمين حين كانت أحكامهم القضائية تستند بقوة على الأحكام البدوية. وتعزز ذلك الميل أيضا بسبب اعتماد علماء اللغة العربية على الاستعمال البدوي في تحديد قواعد اللغة.

إذا استطاع الزمان أن يخفي الأصول البدوية لسكان قرية ما بغطاء النسيان، فإن الظروف الاجتماعية أو السياسية تؤدي أحيانا إلى إعادة الوعي بالأسلاف البدو على نحو قوي يثير الانتباه. وهذا ما حصل، مثلا، في مصر عندما أدت الحركة القومية المصرية بقيادة أحمد عرابي باشا (1839؟-1911) إلى إعادة إحياء القيم البدوية في القرى، والتي لا تزال مسيطرة في مناطق الصعيد بشكل خاص. حيث أدى النظام الأبوي وعادة الثأر والفخر، وهي قيم بدوية، إلى التسبب بتأثير استثنائي وخطير على مدارك الفلاحين. وقد درس الباحث العراقي علي الوردي هذه الظاهرة من منظور علم النفس وانتقد تمسك الدول العربية بالقيم البدوية وتمجيدها. حيث حمل الوردي على الاتجاه الفكري والعاطفي الذي ينظر إلى القيم البدوية باعتبارها مثلا يجب أن يحتذى، كما انتقد حتى القومية العربية لأنها تقاوم الامبريالية من جهة وتنتج الامبريالية من جهة أخرى عن طريق تمجيد القيم البدوية. وبشكل قريب من هذا الانتقاد، جاء هجومه على القيم التقليدية في الأدب العربي، بما في ذلك التراث الذي وضعه الكتاب العرب الكلاسيكيون، إذ يرى الوردي أن هذا التراث مليء بمديح السلطة والإثارة الإباحية والعواطف الشهوانية والمحسنات اللفظية. وكل هذه الخصائص -وهي تنتمي إلى القيم البدوية- مرفوضة جملة وتفصيلا: ولا يتردد الوردي في أن مفهوم الأدب الكلاسيكي «الرفيع» ليس سوى أسطورة لا صلة لها بالحقيقة.

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

إن محافظة العديد من العائلات على تقاليد الأسلاف البدو أو الادعاء بها. هو نوع شائع من النوستالجيا (الحنين إلى الماضي) موجه نحو القيم البدوية. وتواجد هذه الظاهرة بكثرة بين سكان البلدات الصغيرة والمدن الكبيرة على حد سواء. وحتى ضمن العائلات التي سكنت المدن منذ أجيال عديدة. ويشيع ضمن الطبقات الاجتماعية المتواضعة. كالحرفيين والعمال. أن تتمسك بقوة وعناد بأصلها البدوي لأنها يزودها بالادعاء الوحيد الذي يمنحهم أهمية ومرتبة ضمن المجتمع. ولتوضيح هذه النقطة نطرح قضية ما ادعاه عبد الكريم قاسم (رئيس العراق 1958-1963) من أصل لوالديه: إذ كان أبوه. جاسم محمد بكر. نجارا فقيرا يعيش في المهديّة على الضفة الغربية لدجلة. وهذه البلدة يسكنها عوائل فقيرة كادحة من العرب السنة. وقد ادعى قاسم أن أباه ينحدر من قبيلة زبيد. بينما تنحدر أمه من قبيلة بني تميم. وكلتا القبيلتين مشهورة بأصولها العربية.

بشكل عام يمكن القول بأنه حتى في أفقر ضواحي بغداد. حيث تعيش أعداد كبيرة من المهاجرين تنحشر في أكواخ بدائية رثة. لا يزال الناس هناك ينظرون بافتخار كبير إلى انتماءاتهم وعاداتهم العشائرية وولاءاتهم القديمة وقانونهم العرفي الخاص. أي: تراثهم البدوي. وفي دمشق يتمسك كل مكّون من مكوناتها الشعبية «بمصالحه وقيمته الخاصة طبقا لقانون الشرف الأبوي الذي يعود في معظمه إلى النموذج البدوي الذي يفرض نفسه على المدينة من خلال تقاليد الشعيرة وأهميته الجغرافية». كما يقول المستشرق جاك بيرك.

من هذا البدوي الذي تتفاوت العلاقة به في المجتمع العربي المستقر؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبدأ بأن نذكر أولاً أن البدوي هو ابن الصحراء وسيدها. والذي لم تتغير حياته بشكل ملحوظ منذ استئناسه للجمل في القرن 11 أو 12 قبل الميلاد وإلى أن اقتحمت التكنولوجيا الحديثة موطن أجداده بحثا عن النفط. فطوال 3000 سنة. ظلت الصحراء حصنه المنيع الذي استطاع البدوي أن يحافظ فيه -دون تشويش- على طريقة حياته التي طورها بالتعايش مع جملة «سفينة الصحراء». وفي الصحراء كان قادرا على حماية تقاليده

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

المقدسة. والمحافظة على نقاء لغته ونسبه. وتطوير تكيف اجتماعي وثقافي فريد مع إحدى أقدس البيئات التي عرفها الإنسان على الأرض. وخلال هذا التطور أصبح البدوي. كما صقره الصياد: متوترا. حاد الذهن. سريع الغضب. وكتلة من الأعصاب والعضلات والعظام القوية. وتتفاوت حياته ما بين خمود كسول واهتياج مضطرب. وفيما عدا المناسبات الاحتفالية التي يتخم نفسه فيها بلحم خروف أو جمل. يقتصر البدوي في طعامه على التمر. ولبن الجمال الخائر. ومزيج من الطحين أو الذرة المشوية. ويلبس البدوي «ثوبا» طويلا يتوسطه حزام وتحيط بهذا الثوب «عباءة» مما يمنحه مظهرا مميزا وأرستقراطية. ويغطي البدوي رأسه «بالكوفية» التي يثبتها باستخدام «العقال». ولا يستخدم البدوي البنطال ولا يلبس شيئا في قدميه إلا نادرا. وتمنحه الظروف الشاقة والقاسية في حياته إدراكا يجعله يفضل الصبر على بذل مجهود لتغيير واقعه. كما إنه متشدد في الاعتماد على نفسه ويفرض إطاعة السلطات وينحصر ولاؤه في إطار العائلة والعشيرة. فالصحراء تفرض عليه الكثير من المتطلبات بحيث لا يتبقى لدى البدوي احتمال لأية متطلبات أخرى تفرض عليه من سلطة خارجية.

وكي نناقش القيم العربية التي تعود إلى أصول بدوية. أو طبقة بدوية. ينبغي علينا أولا أن نبدأ بإشارة مختصرة إلى طبيعة المجتمع البدوي نفسه. فهذا المجتمع. حيثما لا يزال موجودا اليوم. بقي على ما كان عليه قبل ظهور الإسلام دون تغيير في كثير من جوانبه الرئيسية: إذ لا يزال منظما على أساس الاتجاهات البنيوية نفسها. ويبيد التحركات الداخلية نفسها. ويتمسك بالقيم ذاتها. وحتى أنه يحافظ على خصائص ميزت الحياة الدينية لمجتمع ما قبل الإسلام.

كان البدو. ولا زالوا. مجتمعا أبويا. ومؤسسا على أساس القرابة ويتأثر بها تأثرا شديدا. ويعتبر الكيان الاجتماعي البدوي الحقيقي متمثلا في البدو الرحّل. وهم مجموعة من العوائل التي تعود أصولها إلى سلف مشترك. يخيم أعضاء هذا الكيان سوية. ويبحثون عن مرعى لأنعامهم سوية. ويتزوجون من ضمن نفس المجموعة. ويحملون شعورا قويا

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

بالتلاحم. إن البقاء على قيد الحياة في بيئة مقفرة كالصحارى والبراري في سوريا وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، جعل التطور الاجتماعي يقتصر على بلوغ مرحلة العشيرة فحسب وإلى يومنا هذا. وهذا يعني على الصعيد العملي أن عدة مجموعات من البدو الرحل شكلوا شبه عشيرة، وعدة من هذه الكيانات شكلت عشيرة، وعدة عشائر شكلت اتحادا عشائريا. وكلما كبر حجم الكتلة الاجتماعية المتشكلة بهذه الطريقة، تضاعف التلاحم ما بين المجموعات التي تشكلها، وندرت الحالات التي تشارك فيها بقوات من أجل عمل مشترك. وهذا يعني أيضا أنه دون الأقرباء والعشيرة المباشرة التي ينتمي إليها البدوي وتكون الكيان المترحل، فلا توجد أية بنية سلطوية أو قوة أو حماية يستطيع الاعتماد عليها. ففي الصحراء ينطبق المثل الشائع «أنا وابن عمي على الغريب» بشكل حرفي.

إن تأثير هذا الوضع أدى إلى وضع عدة معايير اجتماعية متشابكة، وكل من هذه المعايير مستند إلى قيم متشابكة مشابهة. وربما من الأصح أن نقول بأن حياة الترحل في الصحراء لم تكن ممكنة إلا بفضل تطوير قيم محددة وبالمعايير التي من خلالها تم تجسيد هذه القيم والتعبير عنها. وفي كل الحالات التي صادف بها البدوي تحديات الصحراء، كان الحل ممكنا. وكان هذا الحل مجموعة خاصة جدا من القيم والبنى والنشاطات. ويمكن عرض الطبيعة المتشابكة لهذه المجموعة من خلال تحليلها من جهة استجاباتها لظروف الصحراء.

قبل كل شيء ينبغي الانتباه إلى أن الصحراء، على الأقل حتى اكتشاف النفط وحفر آبار الماء، لم تتمكن من دعم أي اقتصاد إلا بما يسد الرمق بصعوبة. ومن هنا لا يمكن لغير العشيرة، دون ذكر أي بنية سياسية أكبر حجما وأكثر تعقيدا، أن تقاوم الظروف. لأن البنية الأكبر والأعقد تحتاج إلى إنتاج فائض من الطعام لتغذية الإداريين والجنود وغير ذلك من القطاعات الاقتصادية غير المنتجة. ومن خلال هذا التقييد، كان على الفرد حماية نفسه من هجمات الآخرين الذين يفوقونه قوة، وتم تحقيق هذا بشكل رئيسي من خلال التأكيد على تجمع الأقارب وتلاحمهم، وغرس فكرة الالتزام بالولاء للجماعة والمسؤولية المشتركة

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

باعتبارها قيما عليا. ويمكن لمثل هذه القيم أن تنمو وتفضل فعلها باعتبارها إرشادات إلزامية في مجتمع صغير فحسب. حيث تتأسس العلاقات ما بين الناس على أساس الاتصال الشخصي والحياة الاجتماعية في وسط يعرف فيه الناس بعضهم بعضا بشكل شخصي وتربط علاقة القرابة بين معظمهم أو -على الأقل- يربطهم توهم بانحدارهم من نسب مشترك. وفي مجتمع صغير كهذا توجد ضغوط كبيرة تدفع باتجاه للتطابق مع الجماعة. والتمسك بقيمها. والعيش وفق العرف غير المكتوب الذي يعرفه الجميع. وبعبارة موجزة يمكن القول بأنه دون توفير جماعة الأقارب للدعم الفعال والحماية. تنتهي حياة البدوي. أما الثمن الذي يتوجب عليه أن يدفعه مقابل هذا الدعم فهو الانسجام مع عرف الجماعة وقيمها. والاندماج بهم إلى حد يدفعه إلى أن يحدد مصالحه عاطفيا بمصالح الجماعة. وهذا انسجام لا يتعارض مع استقلالية الفرد.

2. تلاحم المجموعة

في أغلب الظروف يمكن القول أن الصفات الشخصية التي تنزع إلى تقوية تلاحم الجماعة تعتبر قيما إيجابية. ويتم تشجيعها والمكافأة عليها في الطفولة. ويعترف ويتمسك بها البالغ باعتبارها قيما مثالية. وبشكل معاكس. فإن الصفات الشخصية التي يمكن بأي شكل من الأشكال أن تسبب الأذى لتلاحم الجماعة فإنها تعتبر من الخطايا. ومن تبدو عليه في الطفولة يتعرض للتأنيب والعقاب. وبعد البلوغ تلاقى برفض واستهجان شديدين. في مرحلة الطفولة يقوم على أداء مهمة السيطرة على الفرد: أبوه وأمه وعماته وأعمامه وكافة أفراد العائلة بشكلها الواسع. بعد ذلك تتوسع مجموعة السيطرة لتشمل الكيان الاجتماعي الفاعل. وهو الجماعة التي تخيم وترعى قطعانها سوية.

لا مجال عند البدو لمجهولية اسم الفرد. فالكل يعرف الكل شخصا. وينتج عن هذه الظاهرة سيطرة اجتماعية شديدة الفعالية. تتعزز بالتراتبية العمرية. وبصياغة أخرى يمكن القول أن: أصغر الجميع هو من كان له أقل عدد من الناس الذين يذعنون لقبوله

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

ورفضه، وأكبر الجميع هو من كان له أقل عدد من الناس الذين يذعن لأرائهم، وأكبر عدد من الناس الذين يذعنون لرأيه. ومن الجانب الآخر، كلما علا شأن الفرد، تعرض إلى نوع آخر من الضغوط: إذ تؤدي مكانته كقدوة إلى أن يتوجب عليه الانسجام التام مع العرف والتوجه القيمي للجماعة.

ما هي الصفات الشخصية التي تحظى بأشد التفضيل أو الاستهجان في المجتمع البدوي؟ تأتي هذه الصفات على شكل أزواج متضادة، حيث تأتي في أعلى قائمة الصفات الإيجابية كل القيم والصفات التي تشجع على تلاحم الجماعة، وبالتالي: بقائها، وفي أعلى قائمة الصفات السلبية تأتي عكس هذه الصفات. ومن هذه الأزواج: الحماسة (الشجاعة) والجبن. وهما أمران فطريان: فلا حاجة للاستفاضة من أجل فهمهما في مجتمع تكون فيها كل جماعة فريسة متاحة لجماعة أخرى، فهنا لا تنجو إلا الجماعة التي يتصف أفرادها بالشجاعة ويصممون على الدفاع دون الاكتراث بالخطر على المستوى الشخصي.

وتتصل بهذا الزوج من الصفات (الشجاعة-الجبن) أزواج أخرى من الصفات مثل: (العدوانية-الوداعة والمروعة والحلم)، ولكن ثمة اختلاف كبير بين هذين الزوجين. فالشجاعة فضيلة مطلقة؛ والتصرف الشجاع مطلوب من الفرد في كافة المجالات، والجبن (ضد الشجاعة) مرفوض تماما: فينبغي على الفرد أن لا يظهر بمظهر الجبان في أي ظرف كان. بينما تطلب العدوانية من الفرد خارج الجماعة التي ينتمي إليها، وهي مرفوضة داخل هذه الجماعة، ومن يمارسها داخل الجماعة يعتبر مثيرا للمتاعب. أي أنه شخص تخلف عن أداء الواجب الأسمى له كعضو في الجماعة، هذا الواجب المتمثل في دعم وتقوية التكتل الاجتماعي. كما إن الوداعة تعتبر صفة سلبية إذا منعت الفرد من الدفاع عن حقوق جماعته ضد الآخرين. وفيما عدا ذلك، يحظى الفرد الوديع والمسالم بالاحترام، وعادة ما يدعى للتوسط في الخلافات الداخلية. وبينما تشجب العدوانية داخل الجماعة، تحظى المسالمة بالإعجاب والثناء، ويميل الفرد المسالم إلى الحفاظ على السلام داخل الجماعة مما يقويها في مقابل الجماعات الأخرى.

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

يعتبر الثأر من الأحداث المتكررة في المجتمع البدوي. ويشارك فيه كل من الأعضاء العدوانيين والمسالمين سوية بحسب ما تملي عليهم طبائعهم. فإذا ما تعرض فرد ينتمي إلى جماعة ما للقتل على يد فرد من جماعة أخرى فسيعاني أقارب الضحية من إضعاف قوة الجماعة. وتتمثل الاستجابة العلنية على ذلك بإعلان تلميح سمعة الجماعة بالعار. ويدعى الجميع للأخذ بالثأر الذي يصبح مهمة كافة الذكور من أقارب الضحية ممن ينتمون إلى مجموعة الخمسة (وهي مجموعة من الأقارب تتكون من كافة الذكور الذين يتصلون مع الفرد بقربة يفصله عنها خمسة أو أقل من الأقارب الذكور في سلسلة النسب. ويتراوح التركيب الدقيق للخمسة باختلاف القبيلة. لكنها تؤدي نفس المهمة أينما كانت: مجموعة يعتمد عليها الفرد دائما عندما يتورط في عداوة مع الغرباء). وإذا لم يستطع أصحاب الثأر أن يجدوا القاتل فمن المشروع لهم أن يقتلوا أي فرد من أعضاء مجموعة الخمسة التي تتصل بالقاتل. وبالطبع، سيكون على الأفراد العدوانيين في «خمسة» المقتول أن يقوموا بدور فعال في أداء هذه المهمة. وسيلحق هؤلاء القاتل ويخططون للثأر منه بطريقة مفصلة في العرف العشائري. وفي الوقت نفسه، أو بعد مدة محددة، يقوم الأفراد المسالمون في عائلة الضحية (وعادة ما تكون هذه مهمة أكبرهم سنا) بالمباشرة في جهد مواز لإيجاد زعيم مسموع الكلمة أو أكثر بحيث يتساوى في درجة قرابته من كلا الفريقين، وإقناعه بلعب دور الوسيط. وهو دور صعب لكنه شديد الهيبة.

إن الثأر والوساطة في قضايا الدماء في العرف البدوي بقيت دون تغيير عند الانتقال إلى الحياة القروية. كما استمرت باقية في المجتمع العربي الحضري أيضا. إن الإصرار على عادة أخذ الثأر يعقد عمل الشرطة والجهاز القضائي في الجرائم الكبرى والاعتداءات التي يعاقب عليها العرف العشائري بالقتل: فحتى إذا ما حكم على القاتل بالموت وأعدم، فسيظل واجبا على «خمسة» الضحية أن يثأروا له؛ ولن يثأروا له إلا إذا قتلوا قاتله أو أحد أقاربه. وكما يقول العرب دائما: «الدم يطلب الدم». ولا تستعيد عائلة الضحية شرفها إلا بالانتقام، أو الصلح مع دفع الدية المناسبة.

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

إن التشدد في تطبيق قانون الثأر يدفع البدو إلى تنفيذ غاراتهم (الغزو) -والتي كانت تعتبر إلى وقت قريب نوعاً من أنواع التسلية بالإضافة إلى ضرورتها الاقتصادية- بشكل متحفظ وحذر بحيث لا يقتل أحد من الطرفين. إذ تؤدي إراقة الدماء أثناء الغزو إلى عداء دموي يعاني منه الطرفان. وتتمثل الغاية من الغزو في سرقة أكثر ما يمكن من الحيوانات التابعة لمجموعة أخرى. وذلك دون خوض أي صراع مع الرجال الذين يرعونها. أما الغزو الناجح فيحقق هدفين اثنين في نفس الوقت: يقوي المجموعة الغازية من خلال زيادة أعداد قطعانها. ويضعف المجموعة المعادية من خلال تقليص أعداد قطعانها؛ وذلك بما تشكله قطعان الماشية من ضرورة أساسية للمعيشة. وحتى البقاء. في البيئة الصحراوية. يقول المؤرخ اللبناني فيليب حتي عن ذلك في كتابه (تاريخ العرب):

منذ أمد بعيد. والعربي يعادي الآخر والآخر يعاديه.... ففي الصحراء. حيث يكون المزاج العدائي حالة نفسية مزمنة. يكون الغزو إحدى المهام القليلة التي يقوم بها الرجال.... ويصف الشاعر الأموي القطامي المبادئ الموجهة لهذه الحياة بقوله:

أغرّن من الضبابِ على حلالٍ وضبةً إنّه من حان حانا
وأحياناً على بكرٍ أحيانا إذا ما لم نجد إلا أخانا

واتباعاً لقواعد اللعبة -باعتبار الغزو نوعاً من الرياضة العامة- يجب عدم سفك الدماء إلا في حالات الضرورة القصوى.... إن هذه الأفكار حول الغزو وما يتعلق بها من مصطلحات قام العرب بنقلها من خلال الفتوحات الإسلامية.

ورغم ذلك. ينبغي اللعب بلعبة الغزو مع مراعاة قوانينها التي لا تقل صرامة وتقييداً عن قوانين الشطرنج. فإذا كان الغزو مجرد عملية سطو. فإن القبائل الأضعف ستتلاشى مع مرور الوقت بسبب حرمانها من قطعانها التي تأخذها غارات القبائل الأقوى. لكن إطاعة القوانين. والتي يتم الطعن في شرف من ينتهكها. تؤدي بالغزو إلى أن ينحصر بين القبائل أو ما يتفرع عنها بحيث يتساوى الطرفان في المنزلة والقوة. ومن العار بمكان أن تقوم قبيلة

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

نبيلة بغزو قبيلة تقل عنها منزلة (والفرق بين الاثنين يستطيع جميع البدو تمييزه). بحيث تفضل القبيلة النبيلة أن تعاني الجوع عوضاً عن القيام بفعل كهذا. ونفس الكلام يمكن أن يقال عن القبائل التي تتفاوت في مستوى القوة.

وبالطبع، يحدث أن تُنتهك قوانين الغزو ويقوم مجموعة من شباب البدو الذين ينتمون إلى قبيلة نبيلة بغارة افتراسية تستهدف قبيلة أدنى أو جماعة مستقرة. ومع أن مثل هذه الغارة لا يمكن أن تتماشى مع قيم القبيلة النبيلة، فإن هؤلاء لا يتلقون توبيخاً كبيراً لأن الغنائم التي أحضروها تحسّن الوضع الاقتصادي للقبيلة، ويضاف إلى ذلك ما وفّروه من تمارين لشباب القبيلة. وللحيلولة دون حدوث غارات كهذه، تقوم القبائل غير النبيلة والجماعات المستقرة التي تعيش ضمن نطاق غزو القبائل النبيلة بالدخول ضمن علاقة تابعة تقوم من خلالها بدفع المال سنوياً (خوّة) لقاء الحماية.

بما أن هذه الأعراف والترتيبات لا تدع إلا عدداً قليلاً من القبائل متاحاً للغزو، وهذه القبائل تكون مساوية في المنزلة والقوة للقبيلة الغازية، فإن نتيجة الغزو لا تتقرر تبعاً للتفوق العددي أو القوة الجسدية على الجانبين، إنما تعتمد على مستوى الجرأة والمهارة والتحمل. ومن هنا يقوم الغزو بحصر كافة الفضائل الرجولية ضمن مفهوم المروعة.

لقد قيل عن القيم البدوية ما يكفي لإفهامنا بملح مميز آخر من ملامح العقل البدوي، والذي وجد طريقه ليصل إلى العقل العربي بشكل عام. وهذا الملمح هو ثنائية (الفعالية والخمود). إن الشخصية البدوية تنتقل ما بين فترات طويلة نسبياً من الخمود، حيث يقضي البدوي عامة يومه في ما يدعوه العقل الإيطالي، وبنمط مشابه من التقدير والميل، بـ«متعة فعل لا شيء». ويقابل ذلك تدفق موجز لفعالية هائلة أوضح أمثلتها الغزو. ويتميز المزاج البدوي بالانفعالات المفاجئة التي تستطيع أن تدفعه بسهولة للعنف وحتى القتل، ويولي هذه الانفعالات شعور بالندم وفترات طويلة من الهدوء والخمود وميل إلى اللامبالاة. إن هذا التحول ما بين الحالتين لاحظته وعلّق عليه الكثير من الباحثين في مجال

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

الشخصية العربية، من حيث أنها ليست مميزة تختص بالبدو، وإنما تتعداهم إلى الجماعات المستقرة والقرويين وسكان المدن، وإن بدرجة أقل. وحتى في المجتمعات العربية التي تتشبه بالغرب، فإن الاجتماعات الودية بينهم لا تخلو من نوبات مزاجية عنيفة، لكنها لا تسبب إلا اضطراباً مؤقتاً قصير الأمد لا يلبث أن يزول لأن الكل يعلم أن هذا الاضطراب ليس جدياً، وأن تيار الأخذ والرد المستمر سيعود بعد حدوث أمر ثبت أنه ليس إلا مقاطعة بسيطة.

وتلاحظ هذه الظاهرة نفسها في أداء المجتمع العربي عندما يمر بتغيرات في الطبقة الاجتماعية والبنية الاقتصادية والحياة السياسية: إذ يحدث تقدم مفاجئ متقطع تليه فترة من الخمود يتعرض فيها ما تحقق خلال مرحلة الفعالية الموجزة إلى التآكل أو يتحول إلى عنصر من عناصر العرف. وهذا العرف الجديد يتحول بدوره إلى عائق يحول دون حدوث تقدم تدريجي إضافي، ولا يمكن التغلب على هذا العائق إلا بتغيرات مفاجئة جديدة.

لاحظ جورج أنطونيوس في كتابه الشهير (يقظة العرب) أن العرب يؤدون أعمالهم من خلال فورات متعاقبة ومعزولة، عوضاً عن الجهد المستمر والإصرار. وأورد أنطونيوس أن هذه الصفة هي التي أرجع إليها الباحثان نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين الفورات العنيفة المتقطعة التي توزعت على فترات زمنية سادها الهدوء والخمود، وهو الأمر الذي وجدنا بأنه مميّز تاريخ الحركة القومية العربية، وذلك في كتابهما (الهلال في أزمة: دراسة تفسيرية للعالم العربي الحديث).

وكرّرت ليلي القاضي هذا الرأي في كتابها (مؤتمرات القمة العربية والمشكلة الفلسطينية) رغم أنها اعتمدت على مجموعة مختلفة جداً من الملاحظات في دراستها عن القمم العربية، ففي صدد التعليق على عجز الحكومات العربية عن التوصل إلى قرارات، لاحظت كادي أنه «من الأسهل بكثير، كما يبدو، الإقدام على تصرف فوري ينظر إليه على أنه

العقل العربي

الفصل الخامس: المكون البدوي في الشخصية العربية

وليد اللحظة أكثر من كونه حافظاً على إطلاق جهد دائم يقتضي. كما لاحظنا مسبقاً، أداء مستمر وتضحية صبورة لمدة طويلة.»

صحيح أن البون شاسع ما بين الملمح البدوي المتمثل في الفعالية والخمود، وما بين النمط المتقطع الملاحظ في إنجاز المهام في الدوائر الحكومية ومستويات القيادة في الدول العربية، لكن هاتين الظاهرتين مرتبطتان. وعلينا أن لا ننسى أن قادة العرب اليوم تلقوا تربيتهم في بيئة اعتنقت القيم البدوية وتأثرت بها تأثراً شديداً، أو أن آباءهم كانوا كذلك حتماً.